طرابلس
لعلَّ من أجملِ ما كُتِبَ عن طرابلس أنها المدينةُ التي في جَرْسِ اسمها خلاصةُ معناها: فتحتان عاليتان على الحرفين الأولين من اسمها، هما مع الألف القائمةِ بعدهما، كناية عن تلك المناطق والبلداتِ المنصوبةِ حول الفيحاء؛ وضمتان على الحرفين التاليين كأنهما ساعدان يضمان هذا الجوار، حتى ليغدو حرف السين في آخرِ اللفظةِ بعد الفتحتين والألف والضمتين، أشبهَ بحضنٍ رؤوم يأوي إليه الشِّمالُ كلُّه.
هذه كانت نظرتُنا إليها نحن أبناءَ المناطق المجاورة لها منذ أن تفتحت بصائرنا على النظر. فلم نحسب أنَّ لأحدٍ حصةً في رائحة ليمونها أكثرَ منا؛ أو أسهمًا في عبق تاريخها أكثرَ منا. إن كان لأهلها في ملكها حق الرقبةِ، فلنا حقوق الانتفاع. بل هي بتاريخها وحاضرها ومستقبلها ملك مشاعٌ للوطن كله، لأن فيها من قيم المواطنة والعيش الواحد ما تفتقر إليه نواحٍ كثيرة من أرض لبنان. ولا تزال هذه الذاكرةُ رفيقتَنا حتى اليوم. فلم تبرح شوارع المدينة وساحاتها، مأوى خطانا، في العمل والتسوق وبناءِ العلاقات الاجتماعية والمهنية والثقافية، مع شعور غامر بالانتماء إليها دونما حواجز مناطقية أو طائفية، أو هكذا أردنا أن نحفظَها عن ظهر قلب.
صحيحٌ أن حربًا أهليةً مشؤومة التهبَ لظاها سحابة خمسة عشر عامًا، وما زال جمرُها خافتًا تحت الرماد الطرابلسي، فلا يلبث بين الحين والآخر أن ينفجر مناوشاتٍ مفتعَلة بين مواطنين على جبهتين متقابلتين من فقرٍ مشترَك، وتفجيرات إرهابية تطاول الآمنين والمصلين، وحوادث أمنية متفلتة في الأحياء والأسواق الداخلية، لكنَّ المدينة في كلِّ مفترق وطني تعبر عن حقيقة هويتِها بأبهى تعبير ممكن.
واسمحوا لي ههنا أن أقدم لكم أمثلةً حيةً عن الهوية الطرابلسية الجامعة. ففي زمن الحرب المشؤومة، بعد احتراق السراي، انعقدت الجمعية العامة للمحامين في دورتها العادية بمقرِّ نقابة المهندسين. وإذ تعذر على النقيب حينذاك المغفور له الأستاذ حميد معوض، الحضور من إهدن إلى طرابلس، بسبب تقطع السبل وانتشار الحواجز والمسلحين، رفض أعضاء مجلس النقابة الباقون في طرابلس، وهم ثلاثة فقط من المسلمين، أن يُفتتحَ الاجتماع إلا بإذن النقيب، فاتصلوا به هاتفيًّا وطلبوا إليه أن يعلن من بيته عبر الهاتف اكتمال النصاب وافتتاح الاجتماع، فصدع صوته بذلك مكلّفًا أمين السر الأستاذ فاروق مسيكة بترؤُّس الجمعية وإدارة مناقشاتها.
وفي عام ١٩٧٩ لم يقبل المحامون أن ينقضوا عرف المناصفة في تشكيل المجلس فانتخبوا إلى عضويته، غيابيًّا أو بمثابة الوجاهي، الأستاذ جان مرعب حرب، النقيبَ فيما بعد، الذي منعته ظروف الحرب حينذاك حتى من مجرد الانتقال إلى المدينة لممارسة حق الاقتراع.
ولا تزال نقابة المحامين في طرابلس وأخواتُها من نقابات المهن الحرة، محافظةً على مبدأي المناصفة في تكوين السلطة النقابية، والمداورةِ على منصب النقيب، فإذا أفضى احتدام التنافس الانتخابي إلى كسر هذه القاعدة، بادر الفائز الأخير فورًا إلى الاستقالة من منصبه ليحل محله الخاسرُ الاول من الطائفة الأخرى حفاظًا على العرف. وهذا حدث أخيرًا في دورتين انتخابيتين متتالتين عام ٢٠٢١ و٢٠٢٢.
هذه الإضاءات على وهجِها، لا تغطي الظلمة المحيطة بواقع المدينة وسائر الشمال، نتيجة الإهمال الرسمي المتوارَثِ منذ عهود. فالمرافق التي بإمكانها إنعاشُ جوانب كثيرة من الاقتصاد اللبناني لا تزال معطلة بدءًا من معرض الرئيس الشهيد رشيد كرامي في طرابلس وصولًا إلى مطار الرئيس الشهيد رينيه معوض في القليعات. مرورًا بالإرث المملوكي الذي تتكون منه المدينة القديمة، والذي يشكل فيما لو اعتُنِيَ به مصدرًا مهمًّا من مصادر الثروة الوطنية المتأتية من السياحة الثقافية. وفي هذا الإطار يعولُ الطرابلسيون واللبنانيون كثيرًا على قرار منظمة اليونيسكو بإدراج معرض طرابلس على لائحة التراث العالمي لدى المنظمة، مع ما يستتبع ذلك من توفير الإمكانيات الدولية لترميمه واستثماره في سبيل التنمية الوطنية.
وبعد أيها السادة
أردت أن أقدِّمَ أولًا شهادةً عن طرابلس، قبل أن أشهد للكتاب الذي اجتمعنا حوله، والذي يمثل برأيي مرجعًا ثقافيًّا لاكتناه المدينة واقعًا ومرتجى، بأعمقِ وأشملِ ما تعنيه الثقافة. ويثبتُ ناشره الأستاذ ناصر جروس ودار جروس برس، أن رصدَ التاريخ والحاضر، بالإضافة إلى القيمة التوثيقية التي يحتويها، يشكل مفتاح الخطة الحقيقية للتنمية. فليس في قدرةِ أحدٍ ان يتجاوزَ واقعَه ما لم يفهمه أولًا بأبعاده كلِّها. وهذا ما حرص الكتاب على تقديمه وإبرازه بأقلامٍ كثيرة.
يبقى أن أشكر هذه الجامعة العريقة والحضور جميعًا. عاشت طرابلس عشتم وعاش لبنان.